عروض موقعة

ثورات مصر الشعبية

منير، عمرو عبد العزيز.
ثورات مصر الشعبية / عمرو عبد العزيز منير .- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.
٣٥٢ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٦ـ ٠٠٥٨ـ ٩١ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨

عرض وتعليق
د. عمر مصطفى لطف
بالهيئة المصرية العامة للكتاب

مؤلف الكتاب هو الدكتور عمرو عبد العزيز منير، كان يعمل أستاذًا مساعدًا في قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة حائل بالمملكة العربية السعودية سابقًا، وهو عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وعضو جمعية اتحاد المؤرخين العرب أيضًا، وعضو الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية. نال عدة جوائز، منها جائزة الدكتورة سعاد الصباح في أدب الرحلات عن كتاب "أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم". وله عدة مؤلفات، منها : كتاب "الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين"، وكتاب "الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية"، وكتاب "القدس في الأساطير العربية"، كتاب "مصر والنيل بين التاريخ والفولكلور".

لم تكن ثورتى ٢٥ يناير و٣٠ يونيو، ثورات قادها ساسة أو أحزاب، ولكنهما كانتا ثورتين شعبيتين، قادها أفراد من الشعب المصري لينجحوا في تغيير الواقع السياسي، سواءً اختلفنا في نتائجهما المحققة حتى الآن، ولكن لابد من الإشارة إلى أن تلك الثورتين، لم تكونا أول ثورات مصر الشعبية، بل تمتلئ

كتب التاريخ المصرى – منذ فجر التاريخ إلى الآن – بثورات شعبية متعددة الأسباب والأحداث والنتائج.

ومن يتتبع حركة تاريخ شعب مصر الثائر، لابد أن يقرأ المزيد عن ثوراته الشعبية، وهو ما اجتهد الدكتور عمرو عبد العزيز منير فى جمعها في كتاب شامل مختصر هادف، وتصنيفها في فتراتها الزمنية المختلفة، تحت عنوان "ثورات مصر الشعبية"، الصادر من الهيئة المصرية العامة للكتاب منذ عدة أسابيع قليلة.

ورغم تشابه عنوان الكتاب - الذى نعرض له في مقالنا هذا - مع عنوان كتاب أستاذنا المحقق الدكتور حسين نصار "الثورات الشعبية في مصر الإسلامية"، ولكن يتضح – بعد تصفح الكتابين – أن كتاب الدكتور حسين نصار اختص بالثورات الشعبية في فترة محددة من تاريخ مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي؛ وباختصار غير مخل بالتفاصيل، لتقديم قراءة شاملة لثورات مصر الشعبية في هذه الفترة. بينما تناول كتاب الدكتور عمرو عبد العزيز الثورات الشعبية في مصر منذ فجر التاريخ حتى ثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م، أى تتسع الفترة الزمنية لتشمل تاريخ مصر بأجمعه، وهنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يحاول استقراء ثورات مصر الحافلة بالكثير مما يضئ جوهر الشخصية المصرية، ويلقي الضوء على أبعادها التاريخية الثلاثة: الفرعونية والقبطية والإسلامية، وصولاً لواسطة عقد الثورات المصرية .. ثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م.

وتعرض هذا الكتاب لمجمل تاريخ الثورات الشعبية في مصر لكل حقبة بلمحة تاريخية تضم أهم الثورات المؤثرة عليها، ثم أنهى الكتاب بفصل رائع عن أشكال التنفيس عن الشعب المصري منذ الكتابة الساخرة حتى الفيس بوك ... والتي هي وثيقة الصلة بالعرض التاريخي، لأنها قد تكون مؤثرات أو نتائج لتلك الثورات.

في بادئ الأمر نلاحظ – عبر صفحات الكتاب – استخدام الكاتب لمصطلحات أُشتهرت أثناء ثورتي ٢٥ يناير و٣٠ يونيو، ولكنه يطلقها على بعض أحداث الثورات الشعبية منذ التاريخ القديم إلى الحديث، مثل : "الشباب والطريق للنهضة"، "ثورة جياع أم ثورة سباع؟"، "الفلول في مصر (الأيوبية)"، "السلام بالفرشاة المصرية"،

الالتفات حول مطالب الثورات"، "حُرمة المال العام .. في مصر"، و"الثورة مستمرة"، وغيرها.

ويعرّف الدكتور عمرو عبد العزيز الثورة : بأنها تحرك شعبي واسع خارج البنية الدستورية القائمة، أو خارج الشرعية، يتمثّل هدفه في تغيير نظام الحكم القائم في الدولة، وهنا تكون الثورة حركة تغيير لشرعيةٍ سياسيةٍ قائمةٍ لا تعترف بها وتستبدلها بشرعيةٍ جديدةٍ. والثورة يصعب الإشارة إلى نقطة بدايتها أو نهايتها، ولكنها تنطلق من احتياجات يمكن تحديدها، ولكنها أثناء اندلاعها قد تنتج احتياجات ومطالبات لا علاقة لها بالشرارة الأولى التي أنتجها ما يسمى بـ "القابلية الثورية"، والتي يُقصد بها الوعي بأن المعاناة ليست مبررة ولا هي حالة طبيعية معطاة، ووعي إمكانية الفعل ضده في الوقت ذاته.

كان الشعب المصري منذ الأزل شعب صبور، لكن إذا فاض الكيل وزاد عن حده تندلع فيه ثورة عارمة ولا يعود إلا بعد أن تعود إليه حقوقه، فمنذ أيام الفراعنة جرأ المصريون على الثورة، فوصلت إلينا إشارات تاريخية عن ضعف السلطة المركزية وظهور ثورات شعبية ذات طابع انفصالي في بعض المناطق، فغالبًا لم يرحب كثير من الأشراف ورجال الدين بسلطة الفرعون الاستبدادية، وأمام الاستياء الناشب اضطر الفراعنة إلى إعفاء بعض المعابد والمدن من الضرائب والواجبات الأخرى تجاه الدولة، ولكن رغم ذلك ازدادت الحركات الثورية الانفصالية. وقد نادت أدبيات الثورة الاجتماعية الأولى في مصر (القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد تقريبًا) بأن الناس خلقوا متساوون بالفطرة، ومن ثم يجب تطبيق مبدأ "تكافؤ الفرص". كما نادت الثورة بضرورة الاهتمام بالشباب، فهم الطليعة التي ستتولى أمر البلاد وتحمل المسئولية مستقبلاً.

ساهم المزارعون في كتابة أول ثورة مصرية في عصر البطالمة، حيث قام المزارعون بعمل اضطرابات وامتنعوا عن العمل وفروا واحتموا في المعابد، وسرعان ما ازدادت هذه الاضطرابات حتى وقعت أول ثورة مصرية في عهد بطليموس الثالث، لكن لم يصلنا عنها إلا القليل.

وتكررت ثورات المصريين في عصر البطالمة، باحثةً عن كرامة إنسانية بعثرها

مستبدّون كبار وصغار، خاصةً مع حالة الوعي الجمعي التي تحقّقت أثناء هذا العصر، والتي تمكنت من رؤية أهدافها بوضوح، وحدثت حالة من الإجماع عليها مما ضمن تكرار حالة الثورة مهما بلغ ظلم الظالمين ومهما تعقّدت وسائل الاتصال أو تيسرّت. ومع ذلك، فإن ثورات مصر في عصر البطالمة عرفت نوعًا من "القيادة الغائبة"، التي تتشكل من تجمّع غير متماسك من الثوار، وكان الهدف الأولّي الذي وحّدهم يكمن في الرغبة العارمة في الحرية، وفي رفع مستوى الحياة – بمعناه الأوسع – للأغلبية العظمى من المصريين. وكان القاسم المشترك بين هؤلاء الثوار أيضًا مستوى الانضباط والمثابرة والمقدرة على إرساء أشكال تنظيم عصري بهدف تحقيق مطالبهم، فكانوا متحررين من الانقسام العقائدي والأنانية. وقد ارتضى هؤلاء القادة الشعبيين المساومة حالما تطلّبت المتغيرات على الأرض ذلك فيما لم يغب أبدًا عن أنظارهم هدفهم الرئيس.

وفي العصر الروماني لم يكف المصريون عن مناوأة الحكم الروماني بشتى الوسائل، واتخذت المقاومة مظهرًا آخر، وهو تأييد قواد الجيوش المرابطة في الشرق الذين كانوا يتمردون على السلطات الشرعية، وينادون بأنفسهم أباطرة. وصدح المصريون أيضًا بالشكوى والثورة ضد المفسدين من الولاة، وكال لهم المصريون اتهامات عدة مثل الابتزاز والتربح والربا واستغلال النفوذ وإفساد الحياة السياسية.

ومع بزوغ فجر المسيحية في مصر والتي بدأت تنتشر بين الناس فى منتصف القرن الثانى الميلادي، بدأت معها المقاومة الروحية ؛ حيث حاول الرومان منع انتشار المسيحية فى مصر باضطهادات عدة للمصريين، التى لم تزيد المصريين إلا ايمانًا وتشبثًا بعقيدتهم الجديدة التى أمدتهم بقوة روحية ساعدتهم على احتمال الاستبداد والفساد السياسي ، ووجدوا فيها متنفسًا لما يعانوه من ضيق اقتصادي، وزودتهم بالأمل في الخلاص في الحياة الأخرى، وما لبث الامبراطور "قسطنطين" أن اعترف بالمسيحية كديانة رسمية من سنة (٣٢٣-٣٣٧م).

وجاء العرب ليفتحوا مصر ليبدأ عصر جديد العصر الإسلامى، والذي بدأ المصريون في بدايته ترك سبيل المقاومة

السلبية إزاء ثقل الأعباء المالية عليهم، ويقاومون الحكام مقاومة إيجابية، والباع الأكبر في ذلك يعود لشبابها الذين قاموا بتلك الانتفاضات، غير أنهم تحملوا فى سبيل ذلك كثيرًا من الآلام، ولكن الثورة الشعبية فى مصر سرعان ما أنبتت شجرتها وامتدت فروعها خارجها وصار الجزء الشرقي من الدلتا حينئذ مركزًا دائمًا للثورة طوال العهدين الأموي والعباسي.

وفي العصر الفاطمي نجد - المرأة التى يجتهد البعض من مفكري هذا العصر - في تهميش دورها، تقود أول مظاهرة للنساء في القاهرة، فكانت تلك المظاهرة بداية لاتخاذ السلطة الحاكمة إجراءات أكثر صرامة لمنع الاحتكار في الأسواق، فقادت هذه السيدة مظاهرة أخرى تهزج أهازيج الفرح وتنشد أناشيد الفرح والشكر للخليفة الفاطمي.

وفى العصر المملوكي نجمت أهم أشكال العنف والثورات الشعبية عن الضائقة الاقتصادية أو الظلم والقهر السياسي، فلم يترك المجتمع القائم على القوات العسكرية والنفوذ الاقتصادي ومدارس الشريعة المفككة التنظيم والكبيرة النفوذ، كما لم يكن هنالك سلطات مسئولة تتمتع بالكفاءة اللازمة للإصغاء إلى الشكوى التي تصدر عن عامة الشعب. كما كانت العامة تلجأ إلى حكامها السياسيين بغية الحصول على الفرج، ولما لم يكن عندهم لا الوسائل الرسمية ولا ناطقين باسمهم انتظاميين ليقوموا بتمثيلهم لدى السلطان، فقد كانوا يحتشدون في القاهرة خارج أسوار القصر ليرفعوا الصوت عاليًا مطالبين بأن يوليهم المسئول الاهتمام، وليناشدوه إراحتهم من مسغبتهم، وقمع المضاربات.

غير أن فاعلية الاحتجاجات والثورات الشعبية بدون مساندة عسكرية، كانت محدودة الأثر وعرضة للتلاعب والاستغلال، فضلاً عن ذلك كان أمضى سلاح فى يد عامة الشعب غير القادر على القيام بالثورة المسلحة، هو التهديد بالهجوم على الملكية، ونادرًا ما كان يستخدم إلا بأمر من المماليك، وكانت الشكاوى العامة الغاضبة ضد النظام القائم يعوض عنها بالتضحية بمنازل وممتلكات الأمراء المخصصة للزوال على أية حال. فقد حُوّل استخدام العنف من قِبل العامة الثائرة عن أية انجازات دائمة أو ثورية. وكانت عامة الشعب قوة يحسب لها حساب، ولكنها لم تكن ذات نفوذ ينبغي أن

يستشار أو يؤخذ بعين الاعتبار.

وفى أوقات الضائقات السياسية والاجتماعية والثورات الشعبية، كان يتم الاستعانة أحيانًا بالعناصر الإجرامية واللصوص والحرامية للعمل لحساب الأجهزة الأمنية بطريقة غير رسمية، والشاهد فى ذلك المواقف المبهمة لمسئولي الشرطة فى مصر ؛ حيث كان النظام بالطبع مسئولاً عن قمع الجريمة والعنف، ولكن فى مرات عديدة كان رجال الشرطة يطلقون الحرية للصوص والحرامية. وقد تسامح النظام الحاكم المملوكي مع بعض العناصر الإجرامية التي كان يتم استخدامها كقوات – غير شرعية- مساندة للأمراء المماليك ضد بعضهم البعض أو ضد الثورات الشعبية، ويتم إطلاق يدهم فى سلب الأحياء ونهب الأسواق القاهرية.

ولكن لم تخمد ثورات العصر المملوكي، سواء في العواصم كالقاهرة ودمشق أو في الأقاليم كالصعيد أو في الحوف الشرقى، وبعض بوادي الشام، وكثيرًا ما تقرأ عن قومة لعامة الناس من الزعار والحرافيش والدهماء، ومن لف لفهم من الفئات الدنيا، وفى المدن، وفى الصعيد عن ثورة العربان من الكنوز وهوارة وغيرهم.

ولم يهدأ المصريون تجاه الحكم العثماني نتيجة العسف والظلم الواقع عليهم، ولعل ذلك أدى لقيام سلسلة من الثورات كانت نتيجة لسلسلة طويلة من الثورات والانتفاضات على الظلم والفساد والاستغلال المملوكي التركي، كما عبرت عن وعي قومي ناجح، فشهدت تلك الفترة تحركات عديدة قادها العلماء وسارت من ورائهم فيها جماهير الشعب.

ولم يغب الريف عن هذه الثورات ضد الظلم والفساد والاستغلال، ففضلاً عن كثرة حالات الهروب من القرى، فقد قام كثير من الحركات الثورية للفلاحين المصريين، وإن لم نجد كثيرًا من تلك الحركات مذكورًا فى الكتب المعاصرة، فإنما يعود ذلك إلى أن المؤرخين المعاصرين كان أغلبهم يقيمون بالقاهرة وفى معية الحكام والولاة، وكانوا يعتمدون في تسجيلهم للأحداث على مشاهداتهم الشخصية واتصالهم المباشر بالأحداث، ولذلك لم تذخر كتبهم بحركات الفلاحين في الريف إلا تلك الأحداث التي كانت أصداؤها تتجاوز الريف لتتردد فى القاهرة.

وثورات الفلاحين لم تكن تسلك سبيل الهجوم على قلاع أرباب الإقطاعيات، إنما استهدفت السطو على الغلال بصفة خاصة، فإزاء فداحة الضرائب تعرض الريف لحملة تجويع مستمر ومنظم، ولهذا رمت الثورات الزراعية بشكل عام إلى نهب كل ما يمكن نهبه من قمح أمراء الإقطاع المخزون في الصوامع أو على المراكب وإضرام النيران في الباقي لإرغامهم على تخفيض الضريبة.

وشهدت مصر عددًا من حركات الاستقلال التي قام بها الولاة العثمانيون، بالإضافة إلى حركات التمرد والاستقلال التي حاول القيام بها عدد من أمراء المماليك، غير أن الكثير من تلك الحركات لم يكن يصدر في معظم الأحوال إلا عن مغامرة شخصية همها الأساسي الانقلاب العسكري والاستحواذ على السلطة والاستيلاء على أموال الخزانة السلطانية السنوية.

وجعل عنف الحاكم وقسوته هو ورموزه فى أجساد بعض المصريين لها مناعة ضد أعمال الضرب بالكرباج والسلخ وكأنهم يستعذبون الألم أو يسخرون منه يأسًا أو تفكهًا مريرًا من صيرورة أحوالهم، بحيث يستطيع الباحث أن يرى صورة حقيقية لمدى ما يتركه رموز الحكم من آثار على حياته فالمصري يكره الحاكم في كل صورة حتى أدناها، ويكره الإدارة والقوة التي تسلبه حريته وقوته وكرامته وحياته، ولكن لم تسلبه تلك اللزوجة ما بيت التبكيت والتنكيت.

وكان اتجاه بعض أصحاب الملل إلى اختراق رموز الحكم بالرشوة والبذل والبرطلة واستغلال ذلك لتحقيق مصالح خاصة بهم غالبًا ما تكون على حساب إهدار حقوق آخرين هي ظاهرة شبه عامة ترتب عليها اهتزاز ثقة الناس في رموز الحكم، وخلق حالة من الخوف لدى الناس من التعامل معهم ولا تتوانى قريحتهم في تغذية هذا الشعور بمجموعة من الأمثال ، مثل: "فر من السلطان فرارك من الأجرب"، "جبناك يا سلطة تحمينا حميّتي النار وكوتينا"، ويدل كل ذلك على وجود شحنات مكتومة من الغضب لدى الناس ضد رموز الحكم.

ومن رحم النهاية التعسة للحملة الفرنسية على مصر، ظهرت على مسرح التاريخ المصري شخصيات قيادية عديدة واعية بدورها في التغيير من حال إلى حال، وفي مقدمتهم شيخ استرسلت لحيته وعظمت

عمامته، تحفة المهابة ويعلوه الوقار هو الإمام وشيخ الإسلام والمسلمين عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر الشريف الذي ثبت على المبادئ التى شكلت وجدانه في مقاومته للظلم أينما كان.

وأثناء الاحتلال البريطاني لمصر، كانت حركة مصطفى كامل أول حركة أرقت نفوس المستعمرين ؛ فقد تبين منها أن الاستعمار لم يقض على روح الثورة والكفاح بين المصريين. بل أن هذه الروح قد تأججت تأججًا شديدًا عندما كان مصطفى كامل يخطب فى كل مكان، ومن هنا تكمن عبقريته فى قدرته على تقديم فكر ثوري جديد في ملامحه، عميق في أبعاده، رومانسي في طرحه، يجمع بين الحماس الوطني من جانب والفكر السياسي محدد الملامح، متميز الهوية من جانب آخر.

أما الحركة الشعبية التي قادها محمد فريد، فقد حنق الاحتلال على هذه الحركة الجارفة، وحاول إحباطها لكن الشباب تعاونوا في متابعتها، وكانت هذه المظاهرات هي النبضة الأولى لقلب مصر بعد أن خفتت منذ عام ١٨٨٢م (عام الاحتلال البريطاني).

وبتوالى السنوات، اضطر الشباب إلى التعبير عن رأيهم بوسائل عنيفة، فألفت الجمعيات السرية لقتل الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية، وكذلك قتل أعوانهم مثل الوزير أمين عثمان صاحب نظرية الزواج الكاثوليكي بين مصر وبريطانيا.

ومع خيوط الفجر الأولى، كان النظام القديم (الملكي) قد أسلم أنفاسه، وتوافرت في مصر كل شروط "الروح الثورية" عدا التنظيم القادر على قلب الأمور، وتحقق هذا الشرط فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، من قِبل "تنظيم الضباط الأحرار"، معلنين في بداية الأمر أنها حركة تصحيحية داخل الجيش، ثم أعلنوا إنه انقلاب عسكرى لصالح الشعب المصري.

ويظل المصري على مسلكه العام؛ عبر حقب التاريخ المصرى المتتالية؛ واتصاله بالطبيعة، وسعيه الحضاري، وفهمه لحقائق الحياة، هو هو على مر الحقب وكر الأزمنة، ليقدم لنا نموذجًا للحرية كما ينبغي أن يمارسها كل إنسان دون أن يكون بطلاً أو شهيدًا .. حقك في أن تعيش حرًا في مجتمع حر .. تعبر عن رأيك دون أن تخشى الملام، حقك في أن تمارس حريتك السياسية وحريتك الاقتصادية، وحقك أن تختار الحاكم

وتنتقده وتحاسبه إذا أخطأ .. وتغيره إذا خرج على حدود العدل والإنصاف. أن ثورة المصري لم تكن ضد الاستعمار فقط، بل كانت ضد أسباب الظلم جميعها سواء جاءت من المستعمر أو من بني جلدتنا المصريين.

ونأتي إلى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م؛ والتي كانت ثورة ظافرة، جاءت بعد عقود من الإحباط ، وتآكل الحقوق الوطنية والاجتماعية، وحرمان الشعب المصري من حقوقه ومن حاجاته الأساسية. استعاد بها المواطن المصري القدرة على تقرير مصيره وصناعة المستقبل. وأصبحت أسطورة أن العرب والمصريين لا يثورون وأنهم جُبلوا على الطاعة والاستسلام والخنوع قد انتهت، فالمعتقلات العربية مليئة بالنشطاء السياسيين منذ عقود، ولأن جل القطاعات العمالية والمهنية احتجت وأضربت فى مصر.

وفى نهاية الكتاب، يقول الكاتب – ونحن نؤكد قوله – إن الشعب يتطلع - بعد انتهاء الثورة – إلى إعادة البناء من جديد.. بناء متماسك صلب يكون مفتاحًا إلى مصر الجديدة التى تجمع بين تاريخ قديم زاخر ، وحاضر ثائر فائر ومستقبل يملؤه الأمل، "وختامًا .. فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد .. فلنبدأ".

وأخيرًا، فنحن أمام عمل مهم، طرح فيه د. عمرو عبد العزيز منير أهم أسباب ثورات مصر الشعبية وأحداثها ونتائجها، عبر عصور تاريخها المختلفة، عبر صفحات كتاب واحد فحسب، ليقدم لنا صورة عن الشخصية المصرية الشعبية، تفسر لنا كثيرًا من سلوك المصريين فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، ثم الثورة الأخيرة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣م.

ويهم هذا العمل الضخم المهتمين بالتاريخ المصري، وبالتاريخ الشعبي لمصر. ولهذا فالكتاب لا غنى عنه في المكتبات العامة والمكتبات الأكاديمية التاريخية والإنسانية.